(18)

معاناة فلاح

- إلى أين أنت ذاهب ؟
- لا اعرف بالضبط أين أذهب أو ما ذا أفعل .
خلف سالم قريته وراءه وسار بخطى وئيدة على الدرب العريض، كان ذلك صباح يوم من أيام سبتمبر والأرض مقفرة جرداء لا حركة فوقها ولا نشاط في ارجائها والسماء خالية،
لا غيوم تسبح فيها ولا طيور
ترفرف في مداها . والأشجار تساقطت عنها ثمارها القليلة التي حملتها هذا العام .
وحين نظر إلى هذا الجو الذي يحيط به، حول عينيه عنه وخشى أن تزداد كآبته
وحزنه، فهذه الطبيعة تعكس إلى حد بعيد صورة نفسه وآلامه، منذ ثلاثة أشهر، ولعله أيقن، للمرة الأولى في حياته، أن الخريف فصل قائم حزين..
وتطلع إلى السماء فرأى الشمس و قد قطعت شوطا في سيرها، فردد في نفسه وهذه الشمس .. كيف يعبر عن كرهه للشمس ومقته لحرارتها، لو انها لم تكن قاسية هذا العام إلى ذلك الحد .. إذن لبقى له شيء من محصول القمح، شيء ضئيل على الأقل، ولكنه قد يقوم بأود الحياة على كل حال، ولكن الشمس اطالت، هذا العام، استكانتها على ارضه، واكتست السنابل الصغيرة باللون الاصفر منذ يقتها الأولى، وسرعان ما غدت طعاماً للبشر ..
أما الشتاء فكم كان قصير .

لم يستمع فيه إلى دوي الرعد، لم ير المطر يهطل غزيرا مدرارا، وأناة خلال شهر يناير الطويل، على الأرض المزروعة، نقطة في أثر نقطة، وقطرة في أثر أخرى. لقد سكن مارس فلم يقصف ببرده ولاعصفت عواصفه .

كيف تقسوا السماء ، وكيف تبخل الطبيعة هذا البخل ؟!

- اللهم اجعل صيفنا صيفاً ، وشتاءنا ثناء ..

مشى سالم في الطريق المستقيم، والذكريات تمور في نفسه كانت أرضي عطشى،

وحبة القمح في باطن الأرض يبست من الظمأ .. وفي القرية الجدباء نفق قطيع الخرفان كله، كيف تسمح السماء بمثل هذا ؟

أن رجليه تبدو له ثقيلتين،

حين يكون المر «غاية، فان جاذباً قوياً يشد جسمه نحوها ؛ أما هو فلم يكن يدري إلى أين يتجه، انه يشعر بثقل هذا الجلباب الأصفر الذي يلتف به .

في السنين الخصبة يعج هذا الطريق بأصوات السيارات ، ذاهبة وعائدة وهي تحمل المحاصيل إلى المدينة. أما اليوم ماأقل السيارات التي تمر، وما أندر الأبواق التي تزمجر ..

كان من عادة سالم أن يقصد سوق المدينة، كل عام، بعد انتهاء الموسم، فيشتري حوائجه، ويحملها معه ذخراً للشتاء ، وكان يرى في أسواق المدينة معظم أبناء قريته وسكان القرى المجاورة ؛ وكل منهم يتأبط رزمة من قماش

ملون وكعك وحلوى وشاي وسكر ، وأحذية للنسوة وأخرى ، الأطفال . ما عساه أن يرى في السوق هذا العام ؟ سيجد البائعين في الأسواق الطويلة

المسقوفة متربعين أمام واجهات المخازن وقد أكل القحط ريعهم، والفلاحون، يمرون أمامهم، والشوق يلتهب في عيونهم وينهش أعصابهم .

حين ينحبس المطر ...

منذ يومين قصد القرية المجاورة وهو يسوق بقرته وحمارة الأبيض،

هل يدفع القحط بالانسان إلى أن يأكل صديقه ومعينه؟ ولكن يا إلهي كيف يتدنى من البقرة إلى هذا المقدار ؛ ألا يمكن أن تباع البقرة إلا بنصف ثمنها ؟

قال سالم وهو يحول نظره عن البقرتين و الحمار : «فليكن .

في أحد جيبيه الآن المال وهى ثمن حيواناته ، وها هو يحمل ويدخل المدينة وعاد إلى سمعه صوت جاره...

إلى أين تذهب؟

حقا إلى أين أذهب؟

كيف يستطيع جدب الموسم أن يشتت سكان القرية؟

ما أعرض الآمال التي كانت معلقة على هذا الموسم!

منذ حوالي سبع سنين مرت على القرية سنة جدباء قاحلة ، فباع عمه بقرته والمحراث، ومضى إلى المدينة، وهناك اشترى عربة صغيرة وميزانا...

كان يبيع البطاطا في الشتاء ، الفول وانواع التسالي في الصيف .. وهكذا ودع حياة الزرع والحصاد إلى الأبد ..

وتخيل سالم نفسه بائعا ينادي على الفول وانواع التسالي أمام الحديقة الكبيرة ودور السينما، فشعر بغصة في حلقه .

كم يصعب على الإنسان أن يغير عاداته ، ثم أين هذه الحياة الرتيبة ، حياة

البائع الذي يقف منذ الصباح حتى المساء وفي الربيع والخريف إلى جانب
ميزانه، من حياته هو؟ أن له في كل موسم نكهة جديدة، . هي الحياة في الأرض متجددة أبداً متغيرة دائما . حبة صغيرة ثم سنبلة خضراء ثم صفراء ، ثم حبات صغيرة .
أين طعم البطاطا من طعم حبة القمح العذبة ؟!
أتراه نسي أولاد عمه ؟
منذ عدة سنوات ترك أولاد عمه القرية، فذهب اثنان منهم واشتغلا بمحلج القطن، وفي الصيف الماضي حين مرا على القرية مع سالم اصابهم سعالا
عميقاً كاد ان يخرج من صدرهم. واحسرتاه كيف يفعل القحط في الأجسام . أما بقية الأخوة فقد تفرقوا في المدينة، واشتغل كبير الأخوة حارس عقار في المدينة، واقترب سالم من أبواب المدينة. وهو يسأل نفسه، هل يذهب إلى المحلجة فيلتمس فيها عملا له؟
انه بلاشك سوف يجد فيها عملا فموسم حصاد القطن سيبتدىء بعد قليل . ثمة صوت الآلات، وغبار القطن، ولكن لا، إنه لا يحب حلج القطن،
كيف يستطيع المرء أن يقوم بعمل لا يحبه؟
اين عملية حصاد القمح وغربلته من حلج القطن وندفه؟
ولكن من يدري : فلعله سيضطر إلى الدخول في هذا المصنع مكرهاً إذا ما سدت في وجهه كل سبل العمل. وقبل أن يمضي في الطريق القديمة الموصلة إلى أسواق البلدة توقف هنيهة .
ما الفائدة من الذهاب إلى ذلك السوق؟ هل باستطاعته أن يمشي بين المخازن
دون أن تحدثه نفسه بشراء الحوائج التي اعتاد شراءها فيما مضى؟ ما الفائدة من

قهر النفس؟ ما الفائدة من استرجاع صورة القحط إلى النفس ؟!
شعر بحرارة الشمس وهو واقف يتطلع إلى نوع من العشب لفت انتباهه، ليس في نية الشمس أن تحتجب هذا العام،
ما استترت طوال الشتاء ، وهبت الأرض في الصيف،
وهاهي تسلق الإنسان في سبتمبر.
الشمس والقحط والمطر والخصب، صورتان لا تكاد الواحدة منها تنفصل عن الأخرى في ذات نفسه،
ألا يستطيع الإنسان أن يسير في السوق دون أن يشتري شيئاً، هل يستطيع أن يمشي كالجنود حازماً جاداً، بين أصناف البضائع لا يلتفت إلى اليمين، ولا يلتفت إلى اليسار؟ هذا المال الذي يتحرك في جيبه، هل ينفقه في السوق فيعود صفر اليدين كأرض زارها القحط ؟
مشى سالم في السوق المسقوف بين الدكاكين المتراصة يصدمة الذاهبون
و العائدون، وتطارق سمعه عشرات الأصوات والنداءات. ثمة بضائع من جميع الأنواع، وبائعون مهذار وثرثارون يقتنصون المارة كما تقتنص الأسود فرائسها. كان سالم يسير دون أن يرفع رأسه، واجتاز السوق، ورغبة عنيفة تجول في نفسه :
كيف يتغلب الإنسان على القحط؟
كيف يستعيض خسائره؟
كيف يتغلب على جفاف الطبيعة ورداءة الموسم؟
حث خطاه، فاجتاز السوق كله حتى بلغ دكان في نهاية السوق ذا مدخل واسع عريض، مبنية بالحجارة الصفراء الضخمة .. ورأى حارس الدكان واقفا أمام الباب . قال له سالم :
- هل عندكم قمح ؟
- المخزن الثاني في الجهة اليسرى.

واجتاز سالم المدخل فانتهى إلى باحة واسعة تحيط بها عشرات الغرف من جهاتها الأربع و تربض الخيول في وسطها ...
وفي المخزن الثاني في الجهة اليسرى اقترب سالم من رجل مسن جالس على بساط من القش ومتكيء على كرسي صغير .
- السلام عليكم .
- وعليكم السلام ورحمة الله .
- هل عندكم قمح؟
- نعم يا ابني، تفضل واسترح !
و بعد مشادة طويلة عنيفة حادة حول ثمن القمح . قال سالم :
- أريد بهذه المال (سنابل) من القمح .
وفتح سالم صرته فأخرج منها ثمن البقرتين والحمار ودفعه كله إلى الرجل.
سيحرث الأرض بنفسه،
وسيزرع القمح بنفسه، وسيحصده
بنفسه، سيقوم هو مقام جميع الحيوانات! . لن يعمل في غير أرضه، وسيتحدى كل شيء ؛ نعم سيتحدى الشمس أن تحرق السنابل الصغيرة، والمطر
أن ينحبس عن أرضه، والقحط أن يكون !!